ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 12 مارس 2021

تجسير الهوّة بين التصوف والإسلام السياسي

أليكس فيليبون
ترجمة: العيّادي الحاجي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

تجسير الهوّة بين التصوف والإسلام السياسي[1]

أليكس فيليبون[2]

ترجمة: **العيّادي الحاجي**[3]

1 ALIX PHILIPPON. **Bridging Sufism** and **Islamism**. Isim Review 17/ Spring 2006

https://openaccess.leidenuniv.nl/bitstream/handle/1887/17034/ISIM_17_Bridging_Sufism_and_Islamism.pdf?sequence=1

2 أليكس فيليبون (ALIX PHILIPPON) أستاذة محاضرة في علم الاجتماع منذ سنة 2014، متحصّلة على الدكتوراه في العلوم السياسية من معهد الدراسات السياسية بمدينة آكس أن بروفنس (Provence-en-Aix) سنة 2009 تحت إشراف فرانسوا بورجات (Burgat François) في موضوع «الأبعاد السياسيّة للتصوّف في الباكستان». وهي مهتمة بأشكال تحديث الطرق الصوفيّة أو إعادة هيكلتها وحشد أتباعها ومريديها، خاصةً أولئك الذين ينتمون إلى مدرسة برلوي (Barelwie) اللاهوتية، وعلاقاتهم بالنظام السياسي بشكل عام. من مؤلّفاتها المنشورة: «التصوف والسياسة في باكستان. حركة البرلوي زمن «الحرب على الإرهاب»» (2011)، و«في ظل الأضرحة. تقاليد صوفية في باكستان» (2016).

3 باحث تونسي، درس اللغة والآداب والحضارة الإنجليزية بالجامعة التونسية وتحصل على شهادة التعمق في البحث والدكتوراه في اللسانيات التطبيقية من المعهد العالي للغات بتونس. أستاذ مساعد سابق في جامعات صفاقس والقيروان وقفصة.

غالباً ما يقدّم الناشطون المسلمون والخطابات الأكاديميّة الصّلة **بين التصوف** -الذي يُنظر إليه على أنّه الأصل الروحاني للإسلام- **وبين الإسلام السياسي** -المعروف بالاتجاه الإسلامي- على أنها بكل بساطة عدائيّة. لكن الدراسات الحديثة أكدت حقيقة أنّ الحدود بين الاثنين أكثر تعقيدًا وتشعبا مما يعتقد بشكل عام. لذا، حاولت منظمة سياسية دينية ذات مرجعية إسلامية تتخذ من باكستان مقراً لها، إعادة تنظيم هذه المذاهب الإسلامية، وفق تصوّر جديد للدّين يكون للتصوّف فيه منزلة مركزية، وهو ما شكّل تحدّيا للتصورات النمطية للإصلاح في مجتمعها.[1]

تأسست منظمة منهاج القرآن في جانغ (Jhang) بباكستان، سنة 1981 من قبل مولانا طاهر القادري. وعلى الرغم من أن بنيتها وأيديولوجيتها وطريقة عملها تكشف تأثيرا قويا للصوفية، فهي ليست في حد ذاتها طريقة صوفيّة. وقد انخرطت هذه الحركة بحكم توجهها الإصلاحي في خضمّ الحركة الإسلامية الإحيائيّة الحديثة دون إنكار الشعور القوي بالانتماء إلى التقاليد الصوفية. كانت منظمة منهاج القرآن في البداية منظمة دينية تهدف إلى الوعظ والتعليم وتوفير الرفاهية، ثم تحولت إلى منظمة سياسية بشكل واضح في عام 1989 من خلال إنشاء حزب تحريك عوام باكستان (PAT). وقد خاضت الانتخابات العامة قبل الانسحاب من السياسة الانتخابية بعد أن قرر الزعيم الاستقالة من مقعده في الجمعية الوطنية في أكتوبر (تشرين الأوّل) 2004 في احتجاج قوي ضد مشرف على ما يبدو. وفي أكثر من عقدين من الزمن، أصبحت الحركة منظمة سياسيّة دينيّة تتعدى حدود الوطن، وتعد إلى جانب أولئك الموجودين في باكستان أكثر من 25000 منخرط في أكثر من 20 دولة ومتعاطفين معها في أكثر من 80 بلدًا بشكل أساسي من أصول باكستانية.

تقدم منظمة منهاج القرآن نفسها على أنها «حركة إحيائيّة ثورية». ولديها نموذج تنظيمي عقلاني له تسلسل هرمي صارم مستوحى من الجماعة الإسلامية، أكبر حركة إسلامية في باكستان. وقد نشطت في إعادة أسلمة المجتمع الباكستاني من القاعدة عبر سلسلة من المؤسسات التعليمية، وأنشطة الوعظ الحيويّة، ونشر أفكار القادري من خلال مئات العناوين التي تتوزع بين الديني والعلمي في شكل كتب، وأشرطة، وأقراص مدمجة، واستخدام واسع النطاق للإنترنت.[2] وتستخدم الأدوات نفسها لنشر الرسالة في الخارج. وقد تم إنشاء معظم المراكز في «الغرب» كمبادرات عفوية من مسلمين من أصل باكستاني استقطبتها رسالة القادري وتفسيره للإسلام. فقد شعر القادري بالحاجة إلى تأسيس مراكز عمومية من أجل تجميع المسلمين لممارسة الطقوس الدينية جمعا وفقا لهذه المبادئ التوجيهية. إن منظمة منهاج القرآن لا تختلف كثيراً عن الحركات الإسلامية الأخرى في باكستان في تنظيمها وأنشطتها، لكن خصوصيتها في السياق الباكستاني هي جهودها لإنشاء مؤسسات يمكن من خلالها توجيه الطاقة الروحية والقيم المرتبطة بالصوفية إلى مجموعات متماسكة اجتماعيا. لقد استعاد القادري الروحانية من حيث هي الطابع المميّز للإسلام والممثل الحقيقي لأخلاقيّات شبه القارة الهنديّة الثقافيّة. ولذلك، فهو يتخذ موقفا دفاعيا للغاية كلما تعلق الأمر بالصوفية. تتم

إقامة محفل السماء (ابتهالات روحيّة) بما في ذلك موسيقى القوَّالي وأناشيد الذكر بانتظام في المقر الرئيسي في لاهور، ويمكن للمرء أن ينزل تسجيلات من النعت (مدائح الرسول) والموسيقى الروحية، سواء كان لعابدة بروين (Abida Parveen) أو لنصرت فاتح علي خان (Nusrat Fateh Ali Khan)، من موقع إلكتروني، إضافة إلى أنّ الموسيقى الفلكلورية والفن الشعبي متوفران أيضا عبر الإنترنت. ويتم أيضا الدفاع عن مفهوم الوساطة، موضوع الساعة في النقاش الدائر بين الجماعات الإسلامية، بوصفها ممارسة شرعية في الإسلام. وعلى الرغم من انتقاد بعض المظاهر الطقوسية المتّصلة بتقديس الأولياء، فإنّ عددا من أعضاء منظمة منهاج القرآن يؤدّون الزيارة؛ أي زيارة الأضرحة التي تمثّل بالنسبة إليهم حجر الزاوية في معتقدات أهل السنة. ويتم الترويج لقيم السلام والمحبة والتسامح والأخوة المنسوبة إلى الصوفية، بوصفها مراجع كونية تتأسّس عليها إيديولوجية المنظمة وطرائق عملها. ويُنظر إلى الصوفيين الكبار على أنهم نماذج يحتذى بهم، وللتصوف باعتباره وسيلة تستخدم في إصلاح أخلاق الناس من أجل «إحلال السلام والوئام والإنسانية في المجتمع». ويعتبر الجهاد الأكبر أو عملية التطهير الذاتي شرطا أساسيا للجهاد الأصغر الذي يهدف إلى التخلص من الشرور الاجتماعية والسياسية.

وهكذا، يُعرَّف العدو بوضوح على أنّه الاتجاه الوهابي، الذي يميل إلى تعزيز الإسلام النقي برفض التقاليد والعادات المرتبطة بالتصوف و«احتكار لغة الشرعية الدينية».[3] وقد أقر زعيم منهاج القرآن أنّ هذا انحراف عن الإسلام، واتهمه بتشجيع الإرهاب والتطرف، وهما شران غريبان على الصوفية. وفي باكستان كان مولانا القادري واحدًا من الشيوخ القلائل الذين اتخذوا موقفاً صارما ضد ابن لادن. ويبدو أنّ منهاج القرآن وتحريك عوام باكستان قد وفرا بديلا وطنيا للعديد من المسلمين، وخاصةً البريلويّة (Barelwis) في بلد فيه وثيق اتّصال بين المجموعات الطائفية والجهادية، وبين المنظمات الإسلامية السائدة.

لقد تفاعلوا جميعا مع بناء الهوية الإسلامية الجديدة وبالتالي التدين، استناداً إلى فكرة خاصة للنقاء، ميزت النشاط والنضال الباكستانيين منذ بداية الثمانينيات، وشجعت طريق «الاعتدال» برفض التطرف. فالنهضة بالنسبة إليهم، لا تعتبر مرادفاً للنزاع أو العنف أو معارضة الغرب، بل تكون بالتعاون والحوار بين الثقافات والأديان، مع الإصلاح الأخلاقي، والتعليم الإسلامي الحديث. وهكذا حاول تنظيم القادري تجنّب الانقسامات الطائفية عبر وضع تصور لعقيدة قائمة على القيم الكونية.

قيادة كاريزمية ذات تطور صوفي

لقد كانت ألقاب «الشيخ» و«الزعيم» و«المرشد» بعضا من التعبيرات العديدة المستخدمة لتسمية طاهر القادري. وقد اشتمل عمله على توزيع محكم ومعقد لملكات وأصناف من الشرعنة، حيث تلتقي المجالات الدينية والسياسية والأكاديمية والروحية معا لتشكل سيمفونية فريدة للسلطة. فقد كان القادري مؤلفا غزير الإنتاج، وقائدا دينيا محترما، وزعيما لحزب سياسي ولمنظمة دولية، ومحاميا، وشاعرا، وصوفيا يجلّه مريدوه ويظهر لأتباعه في صورة المرشد المطلق الذي يتمتع بسلطة كبيرة. وفي إطار قيادته المركبة اكتست التقاليد الصوفية أهمية خاصة؛ لأنها تعيد إحياء تقاليد مرفوضة، على الرغم من أنّها ما زالت حاضرة في باكستان - تلك التي لـ«لبير» (Pir) (الصوفي) الذي وظّف القادري موارده بطريقة متطورة. كان القادري قد تتلمذ على يدي الشيخ الصوفي «طاهر علاء الدين الجيلاني» (Pir Tahir Alauddin Al Gilani) الذي وضع منظمته تحت قيادته الروحية. وما فتئ يرفض تحمل مسؤولية توريث الخلافة الروحية مانعا حتى تعليم تلاميذه كيفية العهد بالولاء التقليدي المعروف بالبيعة. وقد تجنّب بذلك أن يصبح منافسًا لكل الشيوخ الصوفيين الآخرين في الباكستان، حسب قوله بالإضافة إلى الاكتفاء لنفسه بهذه المرتبة التقليدية. لذلك، تم تحديث إجراءات العضوية التي يشترط فيها فقط تعمير مطبوعة إلى جانب دفع معلوم انخراط؛ أي إنه بطريقة ما، وقع تحويل السلطة التقليدية للصوفية إلى قيادة حديثة. على الرغم من ذلك، ما انفك القادري يوضح لأتباعه أن الالتزام المخلص والنشيط داخل المنظمة هو الذي يخول لهم آليا الانتماء للطريقة القادرية والانضمام إلى مريدي عبد القادر الجيلاني. لذلك، إذا لم يكن الأعضاء «مريدي» القادري في حد ذاته، فإن انتسابه الشخصي إلى الجماعة القادرية يقوم مقام الرابط الروحي الذي يوفر جسرا بينهم وبين المؤسس الأصلي للتنظيم. لكن معظم الأعضاء يعتبرون القادري قائدهم الروحي الحقيقي، أو الشخص الذي يستطيع أن يساعدهم ويهديهم، غالباً من خلال الأحلام. علاوة على ذلك، فإن الزعيم لا ينقطع عن وعد مريديه بمكان في الجنة، وهو في هذا الصدد يدعي القدرة على الوساطة مثل أولياء الله، وأنه صديق الله. هذه الرابطة الروحية هي حافز قوي للحركية، إذ يتطوع الأعضاء لتوظيف طاقاتهم في كثير من الأحيان لدوام عمل المنظمة، وخاصة في مراكز المنهاج القرآني في الخارج، وللتبرع بأموالهم لتمويل أنشطتها العديدة. لذلك، فإنّ العنصر الكاريزمي كان ما يزال مهيمنا في بناء سلطة القادري، بالرغم من أنّه «الراعي الرئيس» لمنظمة غير حكومية وزعيم حزب سياسي، وليس سيدًا صوفيًا تقليديًا على النحو المتعارف عليه؛ لأنه لا يرغب في أن تصبح منظمته جماعة صوفية.

جولة المنهاج القرآني الروحية لعام 2005

يبقى أنموذج الشيخ والمريد هو الشكل السائد للسلطة داخل الحركة، حتى إن لم يتم تفعيله من أجل الحداثة. في الصيف الماضي، أتيحت لي الفرصة للانضمام إلى «جولة روحية»، حيث رافقت 250 عضوًا من المنهاج القرآني من مختلف أنحاء أوروبا صحبة زعيمهم إلى سوريا وتركيا لمدة أسبوعين. قمنا بزيارة أضرحة الصوفيين الكبار (مثل ابن عربي والرومي)، وأنبياء ما قبل الإسلام (مثل يحيى وزكريا)، وشخصيات شهيرة في التاريخ الإسلامي (صحابة، وأفراد من عائلة الرسول، وخلفاء أمويون). وشاهدت أيضا، ما أبداه الأعضاء نحو مرشدهم من تفان وحب وأدب، يذكرنا بما يدينون به تقليديًا لشيخ صوفي فعلى سبيل المثال، خلال جلسات القوالي التي نظمت في دمشق وقونية وإسطنبول، كان القادري يقوم بدور شيخ تقليدي، يتوسط بين القوال والحضور، وبينهم وبين الله. وكان بعض الأعضاء يرقصون على شرف الشيخ بفرح وحشي وعفوي وبأسلوب أقرب إلى البنجرا (bhanjara) (الموسيقى والرقص الشعبي في البنجاب) منها إلى الدراويش الدوارين، وكانوا أحيانا يسجدون عند قدميه في عرض للعاطفة والاحترام. وقد وصف القادري بأنه «الممثل الحقيقي للرسول الكريم» في العصر الحالي أثناء خطاب ألقاه أحد كبار الموظفين في منظمة منهاج القرآن من إنجلترا، وتم تقديمه كوسيط يقرّب الناس أكثر إلى الرسول، ويمثل جميع التنظيمات الصوفية، وينشر رحمة العلماء المسلمين السابقين على جميع أولئك الذين يتبعون «رسالته». وعلى سبيل المثال، فقد سمى القادري جميع أعضاء فرقته الحاليين «مريدين فكريين» لابن عربي خلال حفل أقيم في ضريحه في العاصمة السورية. أثناء وجودهم في دمشق. وانتظم أيضا حفلا سماع مع الصوفيين السوريين من الشاذلية، حيث انعقدت مجالس الذكر بالإضافة إلى حلقات الموسيقى الروحية. وكان الشيخ اليعقوبي، أحد العلماء السوريين، قد زار المنظمة في لاهور في أيار (مايو) 2004 خلال الاحتفال بعيد ميلاد الرسول. بعد هذه الزيارة، تم تكريم القادري بلقب شيخ الإسلام من قبل علماء الدين السوريين، مثل الأستاذ الشيخ الأسد الأصغر، وهو محدث وإمام في الجامع الأموي، ومثل علماء من الشاذلية. وهكذا تم الاعتراف بالقادري على أنه ليس أقل من السلطة الدينية الرائدة في العصر الحالي. وقد منح هذا اللقب على أساس صفاته الروحية، وإنجازاته في مجالات التعليم، والوعظ، فضلا عن إنتاجه الديني والفكري. وقد عززت هذه المصادقة من قبل الزعماء الدينيين العرب مكانته بين أتباعه بشكل كبير وأكسبته شرعية في كل من باكستان وخارجها.

محاولة صوفيّة لبناء حداثة سياسيّة جديدة للإسلام؟

لقد تم تأسيس النظام الأيديولوجي لمنهاج القرآن على أساس مقاربة نقديّة للإسلام السياسي في علاقته بالصوفية، فأظهر وعيا بدوافع استبعاد الصوفية من المصادر الرمزية للإسلام من قبل العديد من الإسلاميين. واعترف بفساد بعض الممارسات الصوفية وضرورة الخروج من المؤسسات التقليدية وتطوير شكل حديث

من أشكال التنظيم. وانتقد أيضا عقيدة ما يسمى بـ «الوهابيين» وأفعالهم، وقد أخذ بعين الاعتبار طريقة تأثير هذه الفئة من الإسلاميين في صورة الإسلام في الرأي العام الغربي. بعبارة أخرى، قام بترشيد شروط الجدل الدائر والمستمر حول الإسلام والحداثة والغرب، وحاول تطوير صوفية بديلة مناسبة ومتطورة بمثابة مصدر ثقافي وأخلاقي وفكري وسياسي للعالم الإسلامي.

لقد حاول حزب تحريك عوام باكستان (PAT) التوفيق بين النظام الرمزي الإسلامي وقيم الحداثة السياسية على الرغم من عدم استقرار تاريخه فقد آمن القادري بأنّ الإسلام هو «منهج ديناميكي ونظام متطور» نظرا لانتصاره للاجتهاد وحرية التفكير والتأويل. بالنسبة إليه كما هو الحال بالنسبة إلى الإسلاميين الآخرين، فإنّ الإسلام هو في الوقت نفسه ميثاق شامل للسلوك البشري والأساس الشرعي والرمزي لنظام اجتماعي واقتصادي وسياسي. ولكن تغييب اسم الإسلام من اسم الحزب كان قرارا مقصودا للتمييز بين هذا التشكيل السياسي والأحزاب «الدينية» الأخرى. لقد بذل حزب تحريك عوام باكستان (PAT) جهدا نحو الشمولية معارضا أي موقف طائفي، وكان بذلك مفتوحا أمام الشيعة والمسيحيين على حد السواء. وأوضح زعيم حزب تحريك عوام باكستان (PAT)، في إطار الجدل حول ما إذا كان الإسلام متناغما مع الديمقراطية، أنّ النموذج الإسلامي قابل للتحويل إلى اللغة السياسية الحديثة المتطورة في الغرب. وقد دفعته إرادته تقليل العداء مع الفكر الغربي إلى المطالبة، مثل أبي الإصلاح الإسلامي محمد عبده، بأن تُعرف «الدولة الإسلامية بالدولة الديمقراطية الصافية»، على الرغم من أنه قد تكون هناك اختلافات في التأويل والتعريف إذ إن هناك مجموعة مشتركة من المؤسسات والقيم المتقاسمة بين كلا النظامين فقد كانت حسب رأيه كل من التعددية وحقوق الإنسان والمساواة والعدالة الاجتماعية موجودة في نظام المصطفى أو النظام السياسي المبني على نموذج مجتمع الرسول. يقول القادري: «كل ما يريده الغرب موجود في القرآن». لذا يبدو أن حزب تحريك عوام باكستان (PAT) قام بعلمنة المبادئ الإسلامية لجعلها متوافقة مع الإطار النظري للحداثة السياسية. بطريقة ما انخرطت إيديولوجية منهاج القرآن في سياق العولمة والجدل الوطني المتوتر بنجاح لاكتساح أسواق دينية جديدة ولكن حزب تحريك عوام باكستان (PAT)، فشل حتى الآن فيما يبدو في حشد الجماهير.

ملاحظات

1. Thierry Zarcone, *La Turquie moderne et l'islam* (Flammarion: Paris, 2003).
2. http://www.minhaj.org.
3. Carl Ernst, *Shambala guide to Sufism* (Shambala publications: Boston, 1997).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021